

تمهيد

أساليب دراسة تاريخ التربية :

لدراسة تاريخ التربية أشكال وأساليب لكل منها إيجابياتها وسلبياتها :

(أ) فهناك من يجعل محور الدراسة حياة وآراء أعلام التربية أو الفلاسفة الذين تركوا بصمات واضحة في الميدان التربوي (١) ومن الأمثلة على ذلك تلك الدراسة التي قام بها « يوليك » في كتابه « تاريخ الفكر التربوي » (٢) فيبدأ هذا الكتاب بدراسات عن أفلاطون وأرسطو ثم السيد المسيح وينتقل بعد هذا إلى الكنيسة القديمة ثم الكنيسة في العصور الوسطى ثم الحركة الانسانية (ويتناول على الخصوص الكلاسيكيين الأوائل وطريقة الجزويت في التربية ثم مونتاني) ، ثم يعرج يوليك بعد ذلك إلى عرض الطريقة الحديثة في التفكير (ويتناول على الخصوص فرنسيس بيكون ورينيه ديكارت ثم جاليليو) ثم يتناول يوليك في الجزء الأكبر من كتابه من يطلق عليهم « جمهرة المربين » وهم كومونيوس وجون لوك وجان جاك روسو وبنجامين فرانكلين وبستالوتزي وهربارت وفروبل وامرسون . ثم يختتم هذه الجمهرة بجون ديوى .

ولا شك أن هذه الطريقة أكثر تشويقاً وجاذبية للقارىء ، بيد أنها قد تؤدي إلى تأكيد دور المفكرين والفلاسفة وتقلل من شأن الظروف الموضوعية التي ساهمت في تشكيل فكر هؤلاء ، كما أنها قد تؤدي إلى افتقار الشعور بالاتصال الزمني والمكاني ، طولياً وأفقياً بين هؤلاء المفكرين والفلاسفة فيظهر كل واحد منهم وكأنه منقطع الصلة بمن هو قبله ومن هو بعده ، بعيداً عن المؤثرات الأخرى ، هذا إلى جانب اغرائها البعض باستغراق جزء غير بسيط في

(١) سعد مرسى أحمد : تطور الفكر التربوي ، ص ١٥١ .

Robert Ulich; History of Educational Thought.

(٢)

الكتابة عن التاريخ الشخصى للمربي أو الفيلسوف كمحاولة لفهم فكره والجور بذلك على الجزء الخاص بفكره وآرائه . وأخيرا فإنها قد تفقد الباحث أو القارئ الوقوف على الأطر الرئيسية الكبيرة للفكر الانساني والتي يضم كل منها عددا من هؤلاء المربين والفلاسفة وبمعنى آخر قد تفلت من بين أيدينا تلك الخطوط الأساسية والمسارات الرئيسية التي تنتظم عددا من الفلاسفة والمربين وتلخص كثيرا من أحداث التاريخ ووقائعه .

(ب) أما الاتجاه الثانى ، ففيه يختار الباحث قضية معينة من قضايا التربية الأساسية ويتتبعها عبر التاريخ من أقدم العصور حتى الآن ، كان يدرس مثلا تطور العلاقة بين الظروف والأحوال الاقتصادية وبين التعليم ، أو تطور العلاقة بين النظريات والأفكار الفلسفية كما نادى بها كبار الفلاسفة وبين تطور التطبيق التربوى لها ، ومن أمثلة الدراسات التي اختارت هذا الاتجاه تلك التي تضمنها كتاب « برويكر » « تاريخ مشكلات التربية » (١) وكذلك دراسة الدكتور محمد أحمد الغنام عن « تطور العلاقة بين الاقتصاد والتعليم » والدكتور محمد الهادى عفيفى عن « تطور العلاقة بين الدولة والتعليم » . وفى هذا الاتجاه أيضا ، قد يكون محور الدراسة مفهوما من مفاهيم التربية الأساسية مثل « الطبيعة الانسانية » أو « الحرية » أو غيرها ، حيث يتتبع الباحث هنا أيضا مختلف الآراء والاتجاهات التي قيلت وظهرت بخصوص المفهوم موضوع الدراسة ، ومن الأمثلة على ذلك تلك الدراسة التي قام بها « ماكليستر » فى كتابه « نشأة الحرية فى التربية » ومن الممكن أيضا أن يكون محور الدراسة اتجاها معيناً مثل الاتجاه الطبيعى أو الاتجاه السيكولوجى أو المثالى . . وهكذا .

والميزة الهامة فى هذه الطريقة ، هى تلك الوحدة الفكرية التي تتخطى حدود الزمان والمكان فتقدم فى إطار واحد وفى مسار رئيسى كافة الآراء والأفكار الخاصة بقضية أو مفهوم أو اتجاه معين وتتيح فرصة تتبع التطور الذى لحق تناول محور الدراسة ، بيد أنها قد تؤدي الى كثير من التكرار لأن معظم المفكرين والفلاسفة قد تناولوا كثيرا من هذه المحاور ، ولا شك أن فلسفة الفيلسوف أو نظرية المربي تقوم على افتراضات ومسلمات وأسس معينة تظهر فى كل ما يقوله وينادى به مما يؤدي الى التكرار الذى نشير اليه ، بالإضافة الى صعوبة الإشارة الى الظروف الموضوعية من تركيب

اقتصادي وبناء اجتماعي وغير ذلك عند الكتابة عن كل محور ، لاننا سنقع أيضا في مثل هذا التكرار . وأخيرا فانه يحمل تسليما ضمنا بأنه يمكن تحديد العلاقة التفاعلية بين كل من الاقتصاد والتعليم مثلا أو الفلسفة والتربية ، بينما واقع الحال يبين أن في ذلك تجاوزا كبيرا حيث تتضافر كل - أو معظم - العوامل في التأثير على بعضها البعض .

وهذه الطريقة على أي حال قد لا تستحب بالنسبة للمبتدئين في دراسة التربية ولذلك فهي أصح لطلاب الدراسات العليا حيث يتحتم الاقتصار على جانب معين والتفرغ لدراسته والبحث فيه .

(ج) والطريقة الثالثة هي الاعتماد على التقسيم الزمني ، فينقسم تاريخ التربية الى عصور ثلاثة مثلا : العصور القديمة ثم العصور الوسطى فالعصر الحديث ، وداخل كل قسم يتتبع الباحث أهم الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي يكون لها أثر في تشكيل الفكر التربوي وقيام المؤسسات والنظم التربوية ، وهي الطريقة التي نسير عليها في الكتاب وهي أكثرها شيوعا في مؤلفاتنا العربية ، مثل تاريخ التربية لمصطفى أمين وتاريخ التربية للدكتور شفيق مع منير عطا الله وتطور الفكر التربوي للدكتور سعد مرسى أحمد وتطور النظرية التربوية لصالح عبد العزيز . الخ .

وليس معنى ذلك أنها تخو هي الأخرى من العيوب ، اذ أظهر ما يمكن أن يترتب عليها هو افتقاد الوحدة الفكرية بين بعض الفلاسفة والمربين ، اذ قد تعرض لآراء وأفكار في العصور القديمة تنزع نحو المثالية ، ثم قد تتبعها بدراسة آراء وأفكار أخرى ظهرت في نفس الفترة تتجه اتجاهها « طبعيا » ، وعندما تنتقل الى العصور الوسطى قد نقابل آراء وأفكارا أخرى مثالية وهكذا .

على أن الفواصل الحادة بين هذه الطرق غير قائم ، اذ يمكن الجمع بين طريقتين أو أكثر ، فغالبا ما يسير الباحث بالنسبة لدراسة أعلام الفكر التربوي وفقا لتقسيم الزمنى ، وكذلك بالنسبة للباحث الذى يختار الطريقة الثالثة اذ يمكن أن يدير كلامه حول الفلاسفة والمربين ، كما قد يديره حول نظريات واتجاهات ومشكلات تميز كل فترة زمنية وهكذا .

اهمية دراسة تاريخ التربية :

والسؤال الذى لا بد وأن يتبادر الى ذهن قارئ هذه الدراسة هو :
ما « الفائدة » التى يمكن أن تستفاد من دراسة تاريخ التربية والتعليم ؟

والحق أن من أكثر الأشياء التي يجدر بنا القيام بها هي أن نقرأ التاريخ .
ففي هذه اللحظات التاريخية التي تعصف فيها التيارات بمصر والعالم كله ،
وتتراقص أمام الأعين عشرات الآراء والنظريات والفلسفات ، لن يجد المواطنون
أرضهم الثابتة إلا في تاريخ وطنهم . ولن يعرفوا طريقهم إلا إذا أدركوا في
أي طريق سار هذا التاريخ من قبلهم .

وقبل أن يدرك الفلاسفة ذلك ، أحس حكماء الشعوب بقيمة التاريخ
بدافع من الميل الفطري للمعرفة ، ففي القرن السادس قبل الميلاد ، قال حكيم
الصين العظيم كونفوشيوس ، أن قدماء الناس اهتموا بدراسة الماضي بقصد
تطوير أنفسهم وحاضرهم . ومن الواضح أن كونفوشيوس أراد بكلمة
« تطوير » كلمة « تعليم » إذ أصاب حكيم الصين في تحديد وظيفة علم
التاريخ بالميل الفطري الى المعرفة ، وهذا ما توصل اليه أعظم الفلاسفة
البريطانيين في القرن العشرين . برتراند رسل ، حينما اشترط للتعليم
التاريخي أن يخطط حسب عقلية من سيتعلم ، وأن يضع المخطط في اعتباره
قدرة الفرد المراد تعليمه ، على التقبل والتصديق ، والحد الذي بعده يرفض
التصديق ، وإذا كان الشخص جاهلا فيجب استطلاع مدى الجهل فيه ومعالجة
ميله الى الرفض بتقديم المعرفة التاريخية التي تخترق حواط الرفض
وحواجزه (١) .

ولو كانت المسألة تقتصر على « سرد » الحوادث والأخبار ، لكانت الإجابة
على السؤال الذي طرحناه محيرة ومخرجة ، ولكن دراستنا تتعدى ذلك الى
دلالة هذه الأحداث على وجه العموم ومن حيث تأثيرها على مجرى التربية
والتعليم على وجه الخصوص ، فليس يكفي أن تعرف حوادث التاريخ لكي
تحسب أنك قد تعلمت التاريخ ، فالأهم أن تستخلص من هذه الحوادث
عبرتها : على أي شيء تدل ؟ وفي أي طريق يمضي التاريخ ؟ فان ذلك يجعلك
تعلم ما سوف يحدث وما لا يمكن أن يعود . . فيجيبك أن تكون رجوعيا ،
ويحميك من السير وراء دعوات براقة فات وقتها . . والتاريخ كما قيل بحق
هو الفرق بين الانسان الواعي وغير الواعي .

الانسان غير الواعي لا يرى الا قطعة الجبن .

ولكن الانسان الواعي يرى قطعة الجبن ويرى المصيدة !! (٢) .

(١) سيد أحمد الناصري : قضية التاريخ القديم (المكتبة الثقافية ٢٧٢) ص ٣٠ .

(٢) أحمد بهاء الدين : أيام لها تاريخ . سلسلة كتاب « روزاليوسف » ، المقدمة .

فالتاريخ وان كان أحداثا أو وقائع غبرت ، إلا أن غايته - كما سنرى - هي جلاء الحاضر والكشف عن حقيقته ، ولا يتسنى ذلك ما لم ينفذ المؤرخ الى حقيقة النزعات التي تسوق الوقائع والاحداث حتى ، تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا ، كما يقول ابن خلدون . والمؤرخ بهذه الصفة فيلسوف أكثر منه راوية ، فليس هناك من فضل للراوية إلا أن يقص ما يرى أو يسمع على علاته دون أن يعرض لما يسمع أو يرى ببحث أو تحليل ، والراوية في هذا مصدر من المصادر التي يرجع اليها المؤرخ في بحثه شأنه في ذلك شأن الآثار والمدونات التي تكون المادة الأساسية لبحث المؤرخ ، فالمؤرخ لا يقص خبر الأحداث فحسب بل يفلسفها ويتحرى العلل في وقائعها والنزعات التي تسوقها ليفسر على ضوئها أحداث الحاضر الذي يعيشه وليس في مقدوره أن ينزع نفسه من حاضره فكل ما يعنيه أن يتخذ الماضي وسيلة لفهم نفسه وإدراك ما يحيط به ، وتلك فائدة التاريخ وجدوى عمل المؤرخ (١) .

انه لا أمل في قوم قطعوا جذورهم من ماضيهم ، لأن النمو الى أعلا يتطلب أن تكون الاصول راسية من تحتها ، والتطور الطبيعي الذي يتجه في الاتجاه الانساني الحقيقي هو الذي ينشأ من سلالة متصلة بالماضي وينفتح لدوافع الحاضر ويتطلع لاماني المستقبل . أن أساليب حياتنا مستمدة من الماضي سواء رضينا أم لم نرض ، تتأثر به سواء عرفناه أم جهلناه ، لأن ثقافتنا وأساليب تفكيرنا وعقائدنا وشعورنا نفسه واحساسنا الفني بما هو جميل وما هو قبيح في مختلف حواس السمع والبصر والذوق والشم واللمس ومقاييسنا الخلقية - كل ذلك متأثر بالماضي ومستمد منه الى حد بعيد ، ولا غنى لنا عن معرفة ذلك الماضي القومي وتتبع سيرته مع الزمان الى وقتنا الحاضر ، كما أنه لا غنى لنا عن الاتصال بالعاطفة مع هؤلاء الجسود الذين سبقونا الى الحياة في ظروف تطابق ظروف حياتنا أو تختلف بعض الاختلاف عنها . لا غنى لنا عن الاتصال بمواطنينا الذين مضوا ، كما نتصل بمواطنينا الذين يعيشون اليوم ، فان هذه هي الوسيلة لتحقيق التضامن الاجتماعي الصحيح الذي يشعرونا بالمسؤولية الوطنية في حاضرتنا والمسؤولية الانسانية نحو الأجيال المقبلة من أبنائنا .

واذا كان هذا الرأي يصدق على التاريخ عموما ، فهو لا يقل عن هذه

(١) حسين فوزي النجار : التاريخ والسير (المكتبة الثقافية ١٢١) ، ص ١٢ - ١٣ .

الدرجة من الصدق فى مجال التربية والتعليم ، فنظرة فاحصة عميقة الى بعض المشكلات التى تواجه حاضرتنا التعليمى مثل :

- غياب النظرية المتكاملة للتربية والتى تكون الأساس السليم لكل ما يجرى فى عالمنا التربوى وتهدينا فى تخطيطنا لتحقيق آمال المستقبل .

- المفارقة الكبيرة بين ما نطالب به المعلم من مسئوليات جسيمة وبين ما نعطيه له . بغير القيام بهذه المسئوليات .

- غلبة الطابع النظرى على معظم دراسائنا حتى فى المجالات « العلمية » .

- عدم احلال « التعليم » مكانه الصحيح فى عمليات التغيير والتطوير والتنوير لمجتمعنا .

- غلبة « الشكلية » على كثير من مناهج وخطط التعليم وعلوم التربية . الخ . نقول أن نظرة الى هذه المشكلات (وغيرها كثير بطبيعة الحال) ، تجعلنا نشعر بهذه الحاجة الى « الحفر » وراء جذوره التاريخية حيث أنها - غالبا - تراكمات تكاثرت عبر وخلال تجارب وأحداث الماضى بعيدا وقريبا ، اذ بهذه الطريقة يمكن لنا أن نتصدى لها ونعالجها المعالجة الصحيحة القائمة على الأسلوب العلمى .

واذا كان « التجريب » يعد عنصرا جوهريا فى المنهج العلمى الحديث ، واذا كانت العلوم الاجتماعية - أو بعضها على الأقل - تعاب فى عدم قدرتنا على اخضاع ظواهرها لمثل هذا « التجريب » ، فإن « الماضى » يمكن أن يعد - وبحق - « المعمل » الذى تختزن فيه آلاف التجارب السابقة التى يمكن أن نهتدى بما وصلت اليه من نتائج فى تكييف الحاضر ورسم المستقبل كما نحب ونرغب :

- فتجربة الفراعنة فى التربية ، تبين لنا كيف يمكن أن يكون الشعور الدينى دافعا وباعثا على القيام بأقصى الجهود وأمضاها فى سبيل الترقى الاجتماعى والطموح العلمى بابتكار القواعد والطرق الرياضية لبناء الأهرامات - مثلا - والنظريات والأفكار الطبيعية والكيماوية لتحنيط الجثث ، والأساليب العسكرية لبناء الامبراطورية . الخ .

- والتجربة التربوية التى شهدتها أثينا وأسبرطة تقارن لنا بين أسلوبين فى الحياة عامة ، وفى التربية خاصة : أسلوب يقوم على اطلاق العنان

لقدرات الانسان وابداعه فى غير ما قيود واستبداد فى سبيل النمو الشامل المتكامل ، وأسلوب يقوم على القهر والاستبداد والتنظيم العسكرى المفرط فى قسوته وجبروته .

- والتجربة التى قام بها محمد على فى مصر القرن التاسع عشر ، تبين كيف أن التعليم عندما يتخذ وسيلة للتطوير والتثوير يمكن أن يعبر بالمجتمع عشرات ، ان لم يكن مئات السنين ، معوضا بذلك حقا طويلة من التخلف والجمود .

- وما قام به الاحتلال البريطانى فى التعميم أيضا . يبين لنا كيف يمكن أن يتخذ التعليم وسيلة للتمكين للاحتلال بالعمل على تجميده اقتصاديا واشاعة التخلف الاجتماعى فى بذائه وتخريب ثقافته ، وعلى العكس من ذلك ، تستطيع قوى الثورة الوطنية أن تستخدمه سلاحا هاما فى معركة النضال الوطنى ضد الاستعمار وهكذا « طفل هذا الذى يحيا حاضره ولا يعرف ماضيه ، طفل فى علمه وعمله وقاصر فيهما ، ونظرتة قد لا تمتد الى أبعد من المكان الذى يقف عليه ، وبالتالي فان تأثيره فيمن حوله ضئيل عليل لأن شيئا هاما ينقصه » .

ولكى نقدر ما نحن افيه من تقدم ، لابد وأن نعرف كم من الجهد بذل فى الماضى أوصلنا الى ما نحن عليه اليوم ، ثم نتطلع الى المستقبل ، ولعل لنا دورا فى بنائه « فلا يكفى ولا يجب أن نأكل ثمارا من شجرة زرعها السابقون دون أن نزرع نحن شجرا يثمر للقادمين ! » (١) .

(١) سعد مرسى أحمد ، مرجع سابق . ص ٣٦ .